خطاب التصوف عند أبي الحسن الششتري

Le discours mystique chez Abu Al hassan Al-Shushtari

السبتي سلطاني
جامعة باجي مختار. عنابة .
sebti.soltani@gmail.com

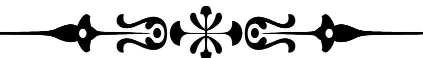
تاريخ الاستلام:2020/10/11 تاريخ القبول:2020/10/17 تاريخ النشر: 2020/11/14

ملخص:

شكل التصوف صورة صادقة عن فترة من فترات العصر الأندلسي، حيث شاع في تلك المرحلة كرد فعل على تفشي الغناء ومظاهر اللهو في الحياة الأندلسية، ومن أبرز رواد فن التصوف الشاعر الأندلسي أبي الحسن الششتري الذي تمثل بشعره ظاهرة التصوف، وجسدها في أشعاره، وتهدف هذه الدراسة الكشف عن قضايا التصوف في شعر أبي الحسن الششتري الأندلسي، وتوصلت إلى بعض النتائج منها حضور تيمتي الحضور والغياب في شعر الرجل بشكل مكثف تعكس تشبعه بثقافة التصوف.

كلمات مفتاحية: التصوف ، الششتري ، الأندلس، قضايا.

Le Mysticisme a formé une image honnête d'une période de l'ère andalouse, car il était populaire à ce stade en réponse à la propagation du chant et aux manifestations de divertissement dans la vie andalouse. Exposant les problèmes du mysticisme dans la poésie andalouse d’Abi Al-Hassan Al-Shushtari, et j’ai atteint certains résultats, notamment la présence de Timati, la présence et l’absence dans la poésie de l’homme, reflétant intensément sa saturation avec la culture du soufisme.



1. مقدمة:

يعد التصوف أحد أبرز القضايا التي تصدى لها الشعراء في العصر الأندلسي متتمثلين في ذلك ما حدث بالمشرق العربي، حيث لم يكن شعراء الأندلس بمنأي عن القضايا التي طرقها شعراء المشرق العربي، وشكل الشاعر أبي الحسن الششتري نموذجا متفردا في الخطاب الشعري الصوفي، حيث تجسدت العديد من قضايا التصوف في شعره على غرار ثنائية الحضور والغياب، الفناء في الذات، والعشق الإلهي وغيرها.

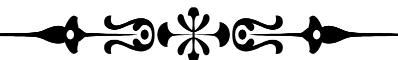
ومن هنا كان لزاما علينا أن نقف عند مقولات التصوف في شعر أبي الحسن الششتري، متسائلين عن أبرز هذه المقولات، وهل تتمكن الشاعر من تمثلها بالشكل الأمثل في شعره؟

2- مفهوم التصوف:

2ـ 1: التصوف لغة:

جاء في اللسان في مادة صوف: "الصُّوفُ للضأْن وما أَشبهه الجوهري الصوف للشاة والصُّوفةُ أَخص منه ابن سيده الصوفُ للغنم كالشَّعَر للمَعَزِ والوَبَرِ للإبل والجمع أَصوافٌ وقد يقال الصوف للواحدة على تسمية الطائفة باسم الجميع حكاه سيبويه وقوله حَلْبانَةٍ رَكْبانةٍ صَفُوفِ تَخْلِطُ بين وبَرٍ وصُوفِ قال ثعلب قال ابن الأَعرابي معنى قوله تخلط بين وبر وصوف أَنها تباع فيشترى بها غنم وإبل وقال الأصمعي يقول تُسْرِعُ في مِشْيَتِها شبّه رَجْع يديها بقَوْسِ النَدَّافِ الذي يَخْلِط بين الوبر والصوف ويقال لواحدة الصوف صُوفةٌ ويصغر صُوَيْفة وكبش أَصْوَفُ وصَوِفٌ وصَوِفٌ على مثال فَعِل وصائفٌ وصافٌ وصافٍ الأَخيرة مقلوبة وصوفانيٌّ كل ذلك كثير الصوف."[1]

قال ابن فارس: الصاد والواو والفاء أصل واحد صحيح، وهو الصوف المعروف، والباب كله يرجع إليه، يقال كبش أصوف وصوف وصائف وصاف، كل هذا ان يكون كثير الصوف، ويقولون: أخذ بصوفة قفاه إذا اخذ بالشعر السائل في نقرته، وصوفة: قوم كانوا في الجاهلية يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج[1]



نستنتج من هذا التعريف ارتباط دلالة التصوف بالبعد المادي أي اقتران التصوف بالصوف الذي كان يرتديه أهل التصوف كناية عن اجتنابهم زخارف الحياة ومتعها، وفي السياق نفسه قال الجوهري في (الصحاح): (الصوف للشاة والصوفة أخص منه، وصوفة أي حيٌّ من مضر وهو الغوث بن مريم بن أدين بن طابخة بن إلياس ابن مضر، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويجيزون الحاج أي يغيضون بهم).[2]

وهو كما نلاحظ ارتباط وثيق لدلالة التصوف بالصوف الذي يعكس حياة التقشف والزهد وحرمان النفس من التلذذ بملذات الدنيا وهو ديدن الكثير من المتصوقة قديما وحديثا.

وهناك من ينسب التصوف إلى لفظ الصفا، دلالة على صفاء سرائر المتصوفة وقلوبهم من كل أدران الحياة، قيل: مأخوذة من صفاء القلب، غير أن اللغة لا تؤيد ذلك، وقيل: مأخوذة من الصف، أي الصف الأول القريب من الله وعارضت اللغة ذلك أيضًا، ولاضطراب القول في تعريف التصوف قال أبو الفتح البستي[3] :

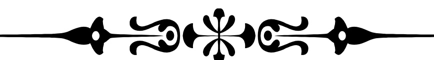
تخالف الناس في الصوفي واختلفوا.. وكلهم قال قولًا غير معروف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى.. صافى فصوفي حتى سمي الصوفي.

2.2 : التصوف اصطلاحا:

عرف الدكتور إبراهيم هلال التصوف بما يلي: (رغم كثرة التعريفات التي عرف بها التصوف الإسلامي في كتب التصوف وغيرها فإننا نستطيع أن نقول أن التصوف كما يراه الصوفية في عمومه هو السير في طريق الزهد، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر في صلاة أو تلاوة ورد.

حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي ويقوى فيه الجانب النفسي أو الروحي فهو إخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم سعياً إلى تحقيق الكمال النفسي كما يقولون وإلى معرفة الذات الإلهية وكمالاتها وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة)[4]



كما عرفه الجنيد وهو من المتصوفة بقوله: (التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة) وقد عرفه أيضاً بما يلي فقال: (التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الربانية والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة)[5]

نجد في كلا التعريفين ارتباط وثيق بين مفهوم التصوف ومفهوم الزهد وترك متع الحياة وابتغاء ثواب الآخرة، ففي تعريف الجنيد على سبيل المثال دلالة واضحة على أن المتصوف يؤثرون الحياة الباقية على الفانية، حيث يختصر تعريفه بالقول التصوف ان تكون مع الله.، ولن يتحقق ذلك إلا بمخالفة البرية ومفارقة ما جبل عليه الإنسان في طبعه، ودفن وإخماد الكثير من الصفات البشرية التي تدعو النفس إلى اقتراف ما نهت عنه الشريعة المحمدية.

3. مصطلحات مرتبطة بالتصوف:

قبل الخوض في قضايا التصوف عند الشاعر الأندلسي أبي الحسن الششتري حري بنا الوقوف عند بعض المصطلحات التي شاعت في عالم التصوف وارتبطت به ارتباطا وثيقا، بل وشكلت وشائج معرفية مع عالم التصوف من ذلك:

1.3 الطريقة:

الطريقة أسلوب حياة لدى المتصوفة وتعد شكلا من أشكال النظم الاجتماعية في المجتمع على اعتبار أن الجميع في هذه البنية الاجتماعية لهذا التنظيم الهرمي الذي يخضع في النهاية لتوجيه وإشراف رائد ملهم، يدين له أتباعه بالتعظيم والتبعية الفكرية والروحية6، والطريقة تعني في سياق التصوف مجموعة من الأفراد الذين يتبعون شيخ الطريقة، ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي، ويحيون حياة جماعية يتخللها اجتماعات دورية في مناسبات معينة، ويقصدون مجالس الذكر والعلم بصورة منظمة في الزوايا والربط7.

2.3 الزاوية:



عرف ابن مرزوق الزاوية في مسنده بأنها "تلك المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين، ويطلق أهل الشرق على الزاوية "الرباط" [8].

إذا فالزاوية ليست مجرد مكان يلجأ إليه الفقير والمحتاج والمعوز بل هي مدرسة دينية روحية، تعلم القرآن الكريم والحديث الشريف، ورياضة للنفس ودربة للعقل.

3 . 3: الرباط:

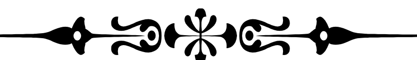
يعرف الفقهاء الرباط بكونه عبارة عن احتباس لنفس في الجهاد والحراسة، ويعرفه المتصوفة بأنه عبارة عن الموضع الذي تلتزم فيه العبادة، واستخدمت كلمة الرباط في المجتمع المغربي علما على الأبناء الذين رابط أسلافهم أو كانوا رؤساء زوايا على اعتبار استمرار الصفة عن طريق الوراثة9.

4ـ مفهوم الحضور والغياب عند المتصوفة:

ينطلق المتصوفة في فهمهم لمسائل الكون من الشعور والذوق أكثر من انطلاقهم من العقل والوعي وبالتالي فهم يختلفون عن الفلاسفة في ركون هؤلاء إلى العقل فيما يفضل أهل التصوف اتباع قلوهم وأهوائهم التي تدرك المبتغى عندما يعجز العقل عن إدراك ذلك، وفي هذا يقول الغزالي: "وظهر لي أن أخصَّ خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات "10

وفي ذلك تأكيد من أبي حامد الغزالي على أن المتصوفة يتعلمون عن طريق الذوق ويحققون الكمال الروحي عبر الذوق والحال وتبدل الصفات.

وبناء على ذلك تجعل المتصوفة الوصول إلى الحقائق الكونية مسألة تتجاوز حدود العلم، بل لا تتحقق إلا للعارف، والعلم كثيرا ما يصد الإنسان عن الوصول إلى تلك المعرفة الكونية، يقول النفري: "العلوم كلُّها حُجُب، كلُّ علم منها حجاب نفسه وحجاب غيره."11 فبحسب النفري فإن العلوم تقف حجر عثرة أمام الباحث عن الحقيقة وتقيده من الوصول إليه لأنها كما قال باتت أشبه ما يكون بالحجاب الذي



يحجب نفسه ويحجب غيره، فهي تعتمد على العقل والعقل قاصر في الوصول إلى الحقيقة.

ففي اعتقاد هؤلاء المتصوفة إن الحقيقة متوارية وراء ألف حجاب ولن يدركها إلا من أخلص قلبه لله وجعل الشعور سبيله بعيدا عن العقل، وبناء على ذلك من غير الممكن أن تنال الحقيقة بالعقل والبحث والتأمل، بل إنها لن تنال إلا بالكشف، ومن هنا كانت المعرفة عند الصوفية ذوقية لا ذهنية والعارف أرقى من العالم.

ونجم عن هذا التصور الذي طرحه المتصوفة فكرة الحضور والغياب من جل الوصول إلى المعرفة، ففي غياب الصوفي حضور وفي حضوره غياب.

ويشكل الغياب الوجداني والشعوري عند الصوفي منطلقا حقيقيا للوصول إلى الذات العارفة والاتحاد معها، بل إن الصوفي لا يرى مندوحة من التعالق الروحي مع المعبود الذي يتجلى في جميع مخلوقاته عبر مبدأ وحدة الوجود.

يقول الششتري*:12

أَرى طَالِبًا مِنَ الزّيادَة لا الحُسْنى بِفِكْرٍ رَمَى سَهْمًا فَعَدَّى بِهِ عُدْنَا

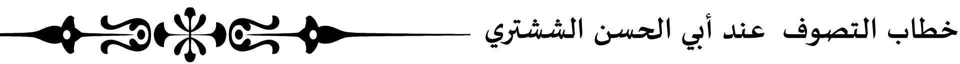
وَطَالِبُنَا مَطْلُوبُنَــا مِنْ وُجُودِنَا نَغِيبُ بِهِ عَنَّا لَدَى الصَّعْقِ إِذَا عَنَّا

فأبو الحسن الششتري يغيب ذاته في ذات خالقه من اجل حضوره مع الذات الإلهية التي تجعله يرتقي لمراتب الكمال ودليل اتحاد الذات الفانية مع الذات الباقية هو ذلك المزج المباشر بين الطالب والمطلوب، ويتجلى هذا المزج من حلال الوصل اللغوي بين الذاتين، فلا فاصل ولا حاجز بين الطالب والمطلوب،

فالشاعر يغيب عن الوجود كي يحقق الحضور في العالم الآخر وهو حضور سماوي ربانيا تمتزج فيه الذات الطالبة بالذات المطلوبة ومن هنا تبدو ثنائية الحضور والغياب.

وفي نص آخر يؤكد الششتري تأرجح حاله بين الحضور والغياب والاتصال والانفصال مع المحبوب حيث يقول:13

أتَيْناك بِالفَقرِ لا بِالغِنى وأنْتَ الذي لم تزَلْ محسَّنا



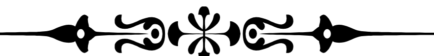
وعَوَّدْتَنا كلَّ فضْلٍ عسى يدُومُ الذي مِنْك عوَّدتَنا
مَساكينُكَ الشُّعثُ قد مَوّهوا بحُبكَ إِذْ هو أقْصى المْنى
فَما في الغِنى واحِدٌ مِثْلُكم وفي الفقْرِ لا عُصْبَةٌ مِثْلُنا
رَأيْناكَ في كلَّ أمْرِ بَدَا وليْس من الأمْرِ شَيء لَنا
سَترتُ اسمَكم غِيرةً ها أنا أموهُ بالشَّعْبِ والمنْحَنى
إِذا كنت في كلِّ حال مَعي فعن حمل زادي أنا في غِنى
فأنْتمْ هُمْ الحقّ لا غَيرُكُمْ فَيالَيْتَ شِعْري أنا مَنْ أنا

فالشاعر لا يتردد في التعبير عن الذات التي تسبح في ملكوت الغياب والحضور مع الذات الإلهية التي قصدتها الذات الفانية، تاركة خلفها كل ما يثقل كاهلها من ملذات الدنيا طامعة فيما عند الذات الإلهية من نعيم دائم وخير عميم، وهو شأن المتصوفة الذين آثروا الحياة الباقية على الحياة الفانية مكتفين بما يقيم الأود، وما يساعد المرء على العيش البسيط، ويدلنا على اتحاد الذات الفانية بالذات الإلهية قوله أنه في غنى عن أي زاد طالما أن الله حاضر معه، ففي حضور الله غياب لكل عوز أو فقر وفي غياب الذات واتحادها مع الذات العلية حضور للسعادة الأبدية.

ويورد الششتري بعض الأبيات التي يناقش فيها مسألة الحضور والغياب مثلما تطرحها الصوفية يقول مقطوعة شعرية بعنوان الحق فيك وأنت فيه:

إِذا غابَ الوجودُ وغِبْت عنْه فلم تعْلم أبْعد أم تَداني
وكُنْت من الزَّمان بلا زَمانٍ وكُنت من المكانِ بلا مكانِ
وحُلْتَ فلسْتَ أنت على يقين عَياناً ثم غبْت عن العَيان
وقلْت فنيت أنَّ الحالَ باقِ وقلْتَ بقيتُ إِنَّ الحالَ فان
رأيْتَ الحق فيك وأنت فيه فصَار العبدُ حُراً في أمان

تشكل هذه المقطوعة نموذجا حيا لثنائية الحضور والغياب في الشعر الصوفي عموما وشعر الششتري على وجه الخصوص، فالغياب عند الصوفي له تجلياته وصوره في شعرهم فالغياب والوجود يشكلان عند الصوفي تيمة متداخلة حيث يتحول الوجود من خلالها إلى غياب ويكون الغياب من خلالها حضور فالشاعر يخاطب الصوفي



معتبرا أن غيابه عن الوجود هو حضور في الغياب إنها جدلية الحضور والغياب عند المتصوفة.

5. خاتمة:

شكلت تيمتي الحضور والغياب إحدى أبرز تيمات الخطاب الشعري الصوفي فحضورها عند الشعراء المتصوفة يشكل علامة بارزة في خطابهم الشعري باعتبارها إحدى أسس العقيدة الصوفية التي تبناها العديد من شعراء المذهب الصوفي ورواده على غرار الحلاج وابن الفارض وابن عربي والششتري وغيرهم.

كما تنوع خطاب التصوف عند الشاعر أبي الحسن الششتري بين مقولات التصوف في شتى أشكالها، وهو ما يجعل المتلقي أمام شاعر مغرق في التصوف.

وقد تتوصل البحث إلى النتائج التالية:

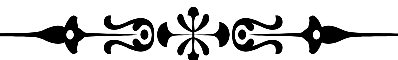
أ . مثل أبو الحسن الششتري جانبا من الحياة الفكرية والثقافية المتصارعة في العصر الأندلسي، بل كان شعره بمثابة مواكبة حقيقية لما شاع في هذا العصر من تفنن بمفاتن الحياة، فكان من الطبيعي أن يكون التصوف رد عل طبيعي على شيوع شتى فنون اللهو والعبث الذي شاع في هذه البيئة الجميلة الغناء.

ب . تنوعت مقولات التصوف عند أبي الحسن الششتري شأنه في ذلك شأن شعراء التصوف في هذا العصر، وهذا أمر طبيعي في ظل انتشار ظاهرة التصوف كرد فعل طبيعي على شيوع فنون اللهو والغناء في البيئة الأندلسية.

ج . مثلت ثنائية الحضور والغياب تيمة بارزة في شعر أبي الحسن الششتري، حيث عجت نصوص الشاعر بهذه الثنائية التي شكلت عمودا فقريا في نصوصها.

6. الإحالات:

[1] - ابن فارس معجم مقاييس اللغة، ج 3، تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار الفكر، القاهرة، مصر، ص322.



[2]- الجوهري،الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق احمد عبد الغفور عطار،ج3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1979 ، ص 1388.

[3] - الكلاباذي، التعرف بأهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، القاهرة، ص25.

[4]- إبراهيم هلال، الصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، د تن ص1.

[5]- الكلاباذي، التعرف بأهل التصوف، ص34.

6. أنظر أعمال الملتقى الذي نظمته كلية الآداب بالرباط بعنوان: " أبو محمد صالح: المناقب و التاريخ" ، النشر العربي الإفريقي،1990م، ص 76

7. حسن جلاب، بحوث في التصوف المغربي ، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، مراكش، 1995، ص 115.

8. منال عبد المنعم جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، ، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1997م،ص 135.

[9]. الخطاب الصوفي: مقاربة وظيفية، محمد مفتاح، مكتبة الرشاد، ط1، 1997م، ص 340.

10 - أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، مكتبة الجندي، القاهرة، بلا تاريخ، ص 43.

11- محمد بن عبد الجبار النفري، كتاب المواقف، دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1934، ص 108.

[12]- الششتري، ديوان أبي الحسن الششتري، تحقيق: محمد العدلوني وسعيد أبو الفيوض،دار الثقافة، الدار البيضاء،المغرب،ط1، 2008، ص 71.

[13]- المرجع نفسه، ص70.

* أبو الحسن الششتري 610) هـ 668 - هـ (شاعر زجال من الأندلس، كان زاهدًا .وصفه لسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة بقوله» :عروس الفقراء، وأمير المتجردين، وبركة الأندلس، لابس الخرقة، أبو الحسن. من أهل شستر، قرية من عمل وادي آش معروفة، وزقاق الششتري معروف بها. وكان مجوداً للقرآن، قائما عليه، عارفاً بمعانيه، من أهل العلم والعمل.«